رحلتي مع المخطوطات

ملتقطات حول المخطوطات وأهم المكتبات في ذلك

من كتاب "قصّة مكتبة"

للدكتور : عبدالله العسيلان

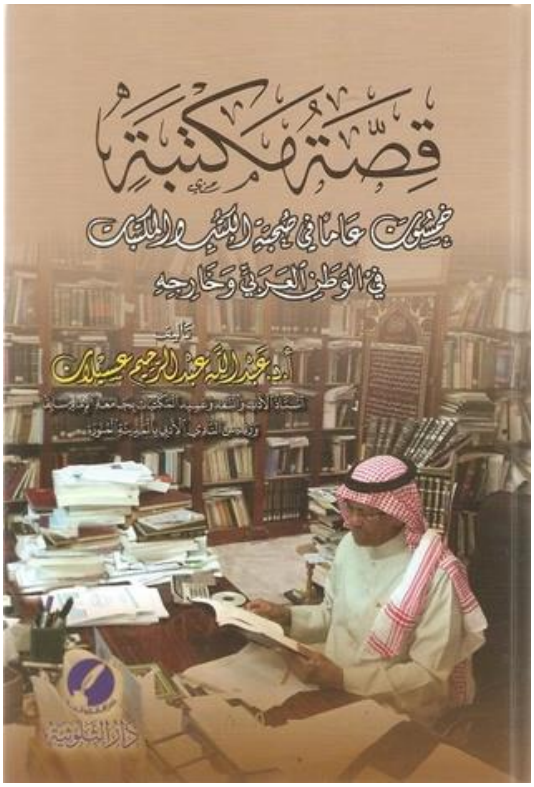

انتقاها بتصرّف

وضاح بن هادي

- رحلتي مع المخطوطات لها تاريخ يتغلغل في أعماق وجداني، إذ منها كانت بداية انطلاقتي في مدارج العلم والمعرفة ..

وفي هذا المضمار ساقتني قدماي إلى مكتبة شيخ الإسلام (عارف حكمت) في قِبلة المسجد النبوي، وهي من أغنى مكتبات المدينة المنورة بالمخطوطات .. وقد وجدتُ في هذه المكتبة المدرسة الأولى، بل الجامعة التي تعلّمت منها الشيء الكثير حين عكفتُ على مخطوطاتها، وأمضيتُ معها سنين طويلة قراءةً وتأملًا ..

- فكتبتُ عنها – أي مكتبة عارف حكمت – بحثًا مطوّلا، وأنا طالب في السنة الثانية من كلية اللغة العربية عام (١٣٨٧هـ)، ثم بعثت به للشيخ حمد الجاسر، فنشَره مشكورًا في (مجلة العرب)، ومن هنا كانت بداية الوعي عندي بعالَم المخطوطات.

- ومن هنا كانت بداية الوعي بـ(عالَم المخطوطات)، ومن المؤسف أنّ الكثيرين من أبناء الأمة العربية والإسلامية لا يشعرون بوجوده، ويحتاجون إلى مَن يشحذ أذهانهم للإحساس به ..

- وأذكر أنّي حينما كنت طالبًا في المرحلة الثانوية والجامعية، احتجت إلى تصوير بعض مخطوطات مكتبة شيخ الإسلام عارف حكمت بالمدينة المنورة، ولم تكن وقتها وسائل التصوير متاحة، فاقتنيت آلة تصوير خاصّة تصوِّر عن قرب ..

- **فوائد نَسْخ المخطوطة :**

١- معايشة المخطوطة، والتعرُّف من كثبٍ عن أسلوب المؤلّف ونهجه وطرائقه في الكتابة، مما يساعد كثيرًا على التصحيح والتقويم.

٢- الوقوف على ما قد يبرز للمحقّق من مشكلات في أثناء النَّسخ، مما قد لا يُدركه الناسخ العادي.

٣- التعرُّف ابتداءً على مضمون الكتاب ومسائله وقضاياه.

٤- قد يكون مَن يتولى النَّسخ ليس لديه خبرةً كافيةً في قراءة المخطوطات، وما تُكتب به من أنواع وأشكال الخطوط القديمة، مما يؤدّي إلى كثرة الأخطاء.

- للمزيد حول فوائد نسخ المخطوطات وتبيُّن النَّهج الأمثل لمن يرغب في تحقيق المخطوطات؛ فليُراجَع كتابي "تحقيق المخطوطات بين الواقع والنَّهج الأمثل"، وقد صدَر في طبعته الأولى عن مكتبة الملك فهد الوطنية عام (١٤١٥هـ)، ثم صدَرَت منه الطبعة الثانية عن النادي الأدبي بالمدينة المنورة عام (١٤٢٦ هـ).

- ومن الأمور الهامة التي لابد من الإشارة إليها، أنّ مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت تحتوي على قدْر كبير من المخطوطات، ولكن مرّت – وللأسف – فترةٌ من الفترات في تاريخ هذه المدينة – فترة قريبة – أصاب مخطوطاتها شيءٌ من الإهمال، مما أدّى إلى ضياع

عدد منها، كما أدّى إلى تسرُّب بعض المخطوطات، وعرْض بعضها في سوق الحرَاج!!

وقد وقعت يدي على عدد من المخطوطات في سوق الحراج في المدينة النبوية، واشتريتُ قدرًا منها، كان من بينها مخطوطات قيّمة ونفيسة!!

- وهناك أمر هام لابد من الإشارة إليه، وهو أنّ هناك مكتبات قد لا يُلقي لها الإنسان بالاً، ولكن تجد فيها كنوزًا، ومع ذلك لا تلقى العناية والاهتمام، وربما أدّى ذلك إلى تلَف مخطوطاتها، وضياعها؛ وقد ذكَر لي أستاذنا المحقّق الكبير، وعاشق التراث الدكتور صلاح الدين المنجد، عن عثوره على مخطوطة نادرة لكتاب : "العُميان والعُرجان والبُرصان والحُولان" في زاوية من زوايا المغرب مهملة، ما كان يخطر على بال أحد أنْ يكون فيها مخطوطات.

- وأذكر من هذا القبيل أنّ مكتبات المدينة – ولاسيما بعض الأربطة – كانت تعجُّ بالمخطوطات، وقد هيّأ اللّه مَن تيقّظ لهذه الأربطة وللمكتبات الخاصة المبثوثة في بعض البيوتات في المدينة المنورة، فجُمِعَت في المكتبة العامة.

وكثير من هذه المكتبات كانت تحتوي على مخطوطات نادرة، فمثلًا : النسخة الوحيدة من "تاريخ ابن شبَّه" للمدينة النبوية، وُجِدت

في مكتبة رباط مظهر، وهي تُعدُّ الآن النسخة الوحيدة والفريدة لتاريخ المدينة النبوية!

- ومن خلال تجوالي في بعض البلاد العربية والإسلامية والأوروبية للبحث عن المخطوطات، خرجْتُ ببعض التصوّرات، ومن هذه التصوّرات : أنّني – للأسف – وجدتُ عدداً كبيراً من المكتبات التي تحوي عيون ونفائس التراث الإسلامي، في بعض البلاد الإسلامية والعربية، وجدتها تُعاني من الإهمال الشديد، إذ ربما وُضع بعضها في مكان غير مناسب، أو لا نجد قيّمًا يرعاها، يكون على درايةٍ وبَصَرٍ بقيمة هذه المخطوطات التي يرعاها، أو ربما كان ضعْف الإمكانات – في كثير من هذه المكتبات – حائلاً دون رعايتها والعناية بها.

- من تلك المكتبات؛ مكتبة إسلامية يُشرف عليها مسلمون في الهند، وهي المكتبة السعيدية، وهذه المكتبة فيها نفائس الكتب في الحديث على وجه الخصوص، ولكن – من المؤسف – أنّي وجدت أنّ هذه المكتبة في سوق للحدّادين، وفي بناءٍ متهدِّمٍ متداعٍ، ويُخشى على المخطوطات من الحريق!

ولقد علمْتُ فيما بعد أنّ هذه المكتبة قد أصابها شيءٌ من الحريق، والتهَم هذا الحريق قدراً يُؤسف له من تراثنا في هذه المكتبة.

- وأيضًا وجدتُ مكتبةً أخرى مُهْملة في مِدْراس، اسمها : المكتبة المحمدية، وهي إرثٌ لعائلةٍ حاكمة من الحُكّام المسلمين لبلاد الهند، وهذه المكتبة تشتمل على ما يربو على ألفي مخطوط، ووجدتُ فيها نفائس، ولكن لا يُنتفع بها، فليس لها فهرست، ووُضِعَت في مكان غير مناسب!

ومن بين مخطوطات هذه المكتبة نسخةٌ قيِّمة كُتبت سنة (٦٠٠هـ) من كتاب "جمهرة الأمثال" للعسكري، والكتاب نُشر محققًا، والذي حقّق هذا الكتاب لم يطّلع على هذه النسخة مع نفاستها وأهميتها، ولو كانت المكتبة متاحة لعرفنا ما فيها من كنوز مخبوءة.

وفي هذه المكتبة، وجدت روايةٌ قيِّمة لم تُنشَر، ولا يُعرَف عنها شيءٌ من "الموطّأ" للإمام مالك ..

- ومما خرجتُ به من تصوّرات – ولاسيما في جولتي في بعض المكتبات الأوروبية – وجدتُ عكس ما رأيته – للأسف – في البلاد الإسلامية، وجدت أنّ المخطوطات وُضِعَت في أماكن مناسبة، ورُوعيتْ واعتني بها عنايةً خاصَّة.

من ذلك على سبيل المثال – أنّني زرت مكتبة (شيستربتي) في أيرلندا، فوجدتها – أولا – في مكان جذّاب أخّاذ، في وسط حديقة غنّاء وفي بناء قديم أثريّ، وجدتُ هذه المكتبة قد وفِّرَت فيها

سُبُل الرعاية والعناية بهذه المخطوطات، من ترميم وصيانة وجوّ مناسب، ورأيتُ أنهم قد وضعوها في غُرفةٍ جُهِّزت وخُصّصت لها، وعليها بابٌ كأنه باب أحد الخزائن في البنوك، وفيها وسائل إطفاء الحريق الذاتي، وهذه المخطوطات التي تربو على ألفين وأربعمئة مخطوطة في مكتبة!

ولو سألنا (شيستربتي) من أين أتيت بهذه المخطوطات؟ لوجدنا إنّما جمعها من البلاد العربية والإسلامية.

- ويمكن القول : لا توجد جامعة من جامعات الدول العربية فيها قدر كبير من المخطوطات – أصلية ومصوّرة – كما يوجد في جامعة الإمام؛ لأنّ فيها أكثر من أربعة آلاف مخطوط أصلي، كان ذلك عن طريق الشراء، وما يزيد عن عشرين ألف مخطوط مصوّر.

- ومكتبات تركيا ثريّة بالمخطوطات، وفيها أكبر عدد وقدر منها في العالم العربي، وبعض هذه المكتبات لم تكن لها فهارس مطبوعة، وعلى مَن يقصدها أنْ يستفيد بما فيها من فهارس داخلية، أمّا الآن فإنّها فهرسَت، ووُضِعَت على سيديهات، وأصبحت متاحة عبر الإنترنت.

- كذلك أيضًا أثناء تجوالي ذهبت إلى جامعة (ليدن)، وفيها قدرٌ لا بأس به من المخطوطات، وأردتُ أنْ أصوّر للجامعة ما يوجد فيها من مخطوطات مهمّة، ووقعَ نظري على لوحة، وكان معي الدكتور قاسم السامرائي، وهو الذي لفت نظري إلى اللوحة، وقرأها لي، وقال : هذه مكتوب عليها مجموعة المدينة، عرفتُ بعد ذلك حينما قرأت ما كُتب في بعض المجلات، من أنّ هناك مخطوطات تسرّبت فعلاً من مكتبات المدينة المنورة، وبيعت لمكتبة (بريل)، ومكتبة بريل باعتها لمكتبة (جامعة ليدن)!

وهناك وجدت مخطوطات مهمة جداً في مجموعة المدينة، وسعيتُ بكلّ ما أملك من جهد لتصوير هذه المجموعة، وفعلاً وفّقنا اللّه، وصُوِّرت هذه المجموعة، وهي الآن مودعةٌ في جامعة الإمام.

- وهناك مكتبات في اليمن، وفيها مخطوطات كثيرة وقيّمة، وبخاصة كتاب "الإكليل"، وهو من المصادر القيّمة والمهمّة، ووجدتُ النُّسخ المهمّة لهذا الكتاب في مكتباتها.